

الانطباعات والصور الذهنية

*كيف تبقى عالقة فى الذهن؟ وكيف تمتدعى؟

يسوقنا الحديث عن الانطباعات إلى البحث عن كیفيتها والمؤثرات التى تسبب بقاءها عالقة فى الأذهان

والانطباعات هى تلك الصور العقلية النفسية الكامنة نفسا وعقلا،
والتي تبقى عالقة فى المناطق البصرية والحسية، وربما السمعية من
المخ.

ويختلف نوع الانطباع طبقا لنوع الاستجابة ومدى ارتباط الإنسان
بالمؤثرات التى تسبب هذا الانطباع.

٤ وقد يمكن للإنسان متى خلا إلى نفسه استرجاع ما يحلوه له من
الانطباعات، وقد يترأى للإنسان انطباع معين وهو يحملق فى أى
شئ آخر لا يمت بصلة لصورة هذا الانطباع. . . . وقد يحدث أحيانا
أن نشاهد إنسانا وقد شرد بصره، وأخذ يبتسم أو تظهر عليه مظاهر
الغضب وقد غاب عما حوله من الناس فى أجواء موقف ما أو
استرجاع صورة ما، وهذا ما نسميه جوازا (بالسرحان) أما الصورة
نفسها موضوع السرحان فهى ما نسميه الانطباع.

ويمكننا أن نقول إن الانطباعات برغم م اختلافها فى النوع فإنها تختلف اختلافا كبيرا من ناحية الدرجة لوضوح والمدة (المدة التى قد يسيطر فيها الانطباع على نفس صاحبه

وتختلف طريقة ظهور الانطباع عن الرؤية العادية اختلافا جوهريا، وفى الوقت الذى تتم فيه الرؤية الخارجية عن طريق حاسة البصر وهى العين. نجد أن الانطباعات تنبثق عند استدعائها - من الداخل - أى عن طريق المناطق البصرية والمخيخ - وقد يحدث أن ينبثق انطباع ما تلقائيا دون سبب ظاهر أو بسبب إثا قد تتصل من قريب أو من بعيد بهذا الانطباع.

ومن الناس من يمكنه استرجاع صورة ما رآها أو عاشها بعد هنيهة من الزمن، ومن الناس من يعجز عن ذلك، بل قد لا يتألق الانطباع فى نفسه إلا بعد مرور فترة من الزمن. . . . أى أنه يكون فى حاجة إلى فسحة من الوقت حتى يترسب أثر هذا الانطباع فى نفسه.

وفى الأعم الأغلب أنه كلما طالت معاشرة الإنسان لشيء معين تكرر له رؤيته فإن ذلك يكون داعيا لسهولة انطباعه فى المراكز الحية والبصرية.

ومن الحالات التى قد تحدد درجة الانطباع لدى عامة الناس، تلك الحالات التى تظهر فيها أشياء مفاجئة قد تثير الرعب أو الدهشة أو السرور الطاغى أو المفاجئ.

مثل حدوث تصادم بين عربتين فى الطريق، أو حدوث انفجار مفاجئ أو رؤية شهاب يسقط من السماء، أو انطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى السماء أو انشقاق ماء البحر عن حوت هائل أو حضور عزيز بعد غيبة طويلة...

فإن هذه الظواهر المفاجئة وما يشابهها تترك فى النفس وفى العقل معاً آثاراً قد يصعب زوالها ولو بمرور الزمن، وبذلك يسهل على صاحبها استرجاعها متى هيا لنفسه فرص الاسترجاع أو ألح عليه مثير يساعد على عودتها إلى الظهور.

واسترجاع انطباع معين من وقت لآخر يُبقى عليه ويحفظه من الزوال، وكثيراً ما يصاحب استرجاع الانطباع أنواع من الانفعالات بالسرور أو بالخوف أو بالقلق.

والانطباعات حية ونفسية، أى أنها عند استحضارها تكون موجودة نفساً وعقلاً، ومن الثابت سيكلوجياً أن هناك أثراً حماسياً لكل عملية انفعالية، والأثر المتخلق من الانفعال هو الذى يحدد الفرق بين حالة الانطباع من شخص إلى آخر.

فالتلميذ الذى أحب مدرسته ولعب فى فئائها وجاس خلال مبانيها وصادق فيها من الرفاق من صادق، وعاش فيها فترة من الزمن - قد نجد أنه من المحبب إلى نفسه أن يسترجع انطباعاته عنها، وهى تلك الصور التى علقت فى مخيلته لتلك السنوات التى عاشها فيها...

والمسافر الذى سافر بالطائرة أو بالقطار من مكان إلى آخر قد يحلو له أن يسترجع بعض ما علق فى ذهنه من الصور والانطباعات.

والعائلة التى قضت فترة الصيف تستمع بمياه البحر وزرقتها وأمواجه، وبنسات الصيف الرقيقة... يمكنها أن تسترجع انطباعاتها عن المكان الذى كانت تقيم فيه، وصور الأصدقاء الذين كانوا يشاركونهم فى هذه الحياة وما صادفهم من حوادث ووقائع.

كل هذه الانطباعات والصور كثيرا ما تبقى عالقة بأذهان أصحابها طالما ظلوا يذكرونها من وقت لآخر..

وغالبا ما تكون الانطباعات الحديثة أكثر وضوحا من الانطباعات قديمة الحدوث، غير أن صورة الانطباع قد تزول تدريجيا بمرور الزمن، وعندئذ لا يبقى عالقا بالذهن إلا الجوانب الفكرية والخبرية.

فالرجل الهرم قد يقص عليك جانبا كبيرا من الأحداث التى عاشها، وغالبا ما تكون صور هذه الأحداث وما تركت من انطباعات قد زالت تدريجيا بمرور الزمن، غير أن وقائعها تظل عالقة بالذاكرة.

وكثيرا ما تساهم بقية الحواس فى تحديد شكل الانطباع، فإن الأحاسيس المصاحبة لحدوث الانطباع والناجمة عن استجابة الحواس الأخرى مثل الشم والسمع واللمس والذوق غالبا ما يكون لها آثار جانبية فى كيان الانطباع.

وقد يكون الانطباع مصحوبا باسترجاع رائحة معينة أو صوت خاص أو مذاق بعينه، وهكذا... ومن الناس من تكون لديه القدرة على استرجاع صورة كاملة شاملة للانطباع بكل هذه الأحاسيس.

وتخضع عملية الاسترجاع لعدد من العوامل التي تساعد على تحقيقها بصورة سريعة، وبعض هذه العوامل ذاتى يتعلق بالفرد نفسه وما يجرى به شعوره من أفكار وصور وأحداث، والبعض الآخر من هذه العوامل يتعلق بالمؤثرات المتعلقة بهذه الانطباعات والتي قد تؤدي إلى بروز هذه الانطباعات وانبثاقها فى النفس، وقد يكون فى إثارة عنصر مصاحب للانطباع دافع لانبثاق وبرز انطباع بأكمله. وعلى سبيل المثال:

قد يكون فى انبعاث رائحة ما مثير لاسترجاع انطباع بأكمله.
وقد يكون فى سماع صوت أو نغم مثير لاسترجاع انطباع بأكمله،
وهكذا...

أما فيما يتعلق بالتفاصيل الشكلية واللونية التى تمحدد إلى حد كبير وضوح الانطباع فإن ذلك يتوقف على مدى قدرة المراكز العصبية والحسية على وعى هذه التفاصيل وحفظها

* الانطباعات والأخيلة والتصورات.

وكثيرا ما يصاحب استرجاع الانطباعات اختلاق إضافات أخرى من الأخيلة والتصورات، وقد تعتبر هذه ظاهرة عامة شائعة بين الناس، وخاصة عندما تسيطر على الفرد أحلام اليقظة. . . . وغالبا ما يلعب اللاشعور دوراً كبيراً فى هذه الإضافات والأخيلة؛ إذ تكون الفرصة مهيأة لظهور بعض ما يكمن فى النفس من الرغبات المكبوتة فى صور متعددة ومتباينة. . . .

فقد يحدث أن يرى إنسان نفسه وهو يحاول أن يخنق عدواً له لا يقدر على أن يصل إليه فى الحقيقة.

وقد يتصور شاب أنه يحاول أن يلاطف محبوبته بما لا يمكنه أن يفعله فى الواقع.

وقد يتبادر إلى ذهن لاعب الكرة المبتدئ أن الناس يصفقون له ويهتفون باسمه وهو يؤدي بعض الألعاب الخارقة.

وقد يتصور بائع جشع أنه يجمع آلاف الجنيهات ويرتبها داخل خزانته.

وقد يتخيل آخر أنه ينتقل إلى مكان بعيد بوسيلة خيالية فى غمضة عين.

وقد يجد شخص جائع نفسه وهو يلتهم ما لذ وطاب من الأطعمة مما اشتتهت نفسه. . . . وهكذا.

وما أشبه كل هذه الانطباعات التخيلية بما قد يبدو فى الأحلام وقت النوم.

التصور والقدرة على التخيل والاستنباط

هناك علاقات وطيدة بين عمليات التصور والقدرة على التخيل وإنشاء الصور وما قد يتبع ذلك من عمليات الاستنباط أو الاستنتاج.

وتعتمد عملية التصور أساسا على الخبرات العقلية الكامنة والانطباعات الذهنية السابقة والراهنه، ويعتبر التذكر الطريق الموصل بين هذه الخبرات السابقة وبين أية عملية إنشائية جديدة.

وتختلف القدرة على التصور فى درجتها بين أفراد المجتمع، شأنها شأن كافة القدرات، غير أن هذا الاختلاف غالبا ما يكون من ناحية الدرجة وليس من ناحية النوع.

فمن الناس من يعجز عن إنشاء أية عملية تصورية أو ابتكارية، ومنهم من يمتاز بالقدرة على إنشاء الصور الجديدة وتخيل الأجواء وتشكيل المواقف، لا يستعين فى ذلك إلا بما علق فى ذهنه من عناصر وتفصيلات وخبرات سابقة لا تمت إلى الصورة الجديدة

بصلة، كما أنه لم يسبق لهذه التفصيلات أن ارتبطت مع بعضها البعض فى سياق مماثل يقارب تلك الصورة الجديدة.

وهذا ما يعرف فى ميادين علم النفس بالقدرة على التخیل

العنيفة : Dramatic Imaginatlenn

وقد امتاز الكثير من الفنانين التشكيليين الأوربيين بهذه الميزة، ومن بينهم بعض مصورى عصر النهضة فى إيطاليا. مثل: ميكلا أنجلو Micle Anglo وتشيانو فرللى Tittiano. وليست هذه إلا نماذج لأفراد من البشر امتازوا بالقدرة على التصور والتخیل،

وقد تصبح عمليات التصور والإنشاء سهلة يسيرة إذا ما تحددت الفكرة واكتملت الانطباعات، مما يهيئ الذهن إلى الانصراف نحو فحصها وتنسيقها، وهذا يساعد على تصور واستنباط أفكار جديدة، وبالتالي إخراجها إلى حيز الواقع، وكثيرا ما يصبح التصور على هذا الأساس أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال، ذلك أن طبيعة الأمور وطبائع الناس أشياء لا تتغير بين يوم وليلة، ولعل طبيعة الأمور وطبائع الناس أكبر عون على المعرفة ولو بغير معلومات تفصيلية محددة.

ومن الثابت أن الوظائف العقلية من إدراك وتصور وتذكر وفهم وتفكير لا تتم إلا فى حالة سيطرة المراكز العصبية فى المنطقه الدماغية

على ما دونها من المراكز، وتضطرب هذه الوظائف إذا عجزت المراكز العليا عن ضبط سيل الإحساسات التأثيرية الصاعدة من المراكز السفلى وتوجيهه، ولا شك في أنه لا بد من شحنة وجدانية تصحب العمليات الذهنية لتغذية النشاط العقلي ولتزكية الشوق إلى مواصلة العمل، فباختلاف هذه الشحنات الوجدانية يختلف مستوى النشاط العقلي، فيرتفع حيناً ويهبط حيناً آخر.

فمما لا شك فيه أن الشحنات الوجدانية التي تصحب العمليات الذهنية المختلفة الناجمة عن الأجواء النفسية، كالهدهوء أو الإثارة، أو الفرح أو الكآبة، أو القلق أو الاطمئنان - إنما تعمل على صبغ النشاط العقلي وتوجيهه وجهة معينة.

ومن العسير - إذا لم يكن من المحال - العثور على إحساس صرف أو على إحساس منفصل تماماً عما يصاحبه من إحساسات أخرى أو من شحنات وجدانية. والإحساسات المختلفة متفاوتة من حيث درجة تأثيرها بما يحيط بها أو من حيث ما تصطبغ به من ألوان وجدانية.

الرؤى والأحلام

ليس الحديث عن الرؤى والأحلام بالحديث الجديد على الأفهام والأسماع، غير أن ما يستجد من الكتابة عنها قد يفسر لنا أوجهاً جديدة لهذا الموضوع. وقد تعددت الأبحاث فى مذاهب علم النفس عن الأحلام واللاشعور. ويرتبط موضوع الرؤى والأحلام بموضوع اللاشعور ارتباطاً وثيقاً.

وأود - لو طأعتنى الكلمات - تقريب مفهوم الرؤى والأحلام إلى حيز الوضوح والتبسيط، كما أود أن أبعد - ولو قليلاً - عن غموض الألفاظ وتراكيب المصطلحات.

ومن المسلم به فى ميدان علم النفس، أنه لا مفر للباحث عن الرؤى والأحلام من الحديث عن اللاشعور والعقل الباطن. وحتى يمكننا أن نتحدث عن الرؤى والأحلام لابد لنا أولاً من أن نتكلم عن اللاشعور أو ما نسميه تجاوزاً بالعقل الباطن.

وتطلق كلمة اللاشعور على ما يختفى من حياتنا وراء الظواهر الشعورية وعلى ما نحاول إخفاءه فيها من رغبات قد تتعارض مع ما يقره المجتمع والقواعد المرعية.

واللاشعور يشتمل على الذكريات المؤلمة والخبرات الشخصية المنسية، والدوافع الفطرية والنزعات النفسية التي لا يسمح لنا المجتمع بتحقيقها.

وقد يحسن أن نطلق على هذا الجانب من حياتنا النفسية - العقل اللاشعورى - وهى المنطقة الخاصة من العقل التى يدرسها التحليل النفسى.

وكثيرا ما يرتبط فى أذهان الناس أن اللاشعور ليس إلا حفرة تلقى فيها أفكار منسية لا قيمة لها، وفى الحقيقة أن الأمر عكس ذلك تماما، إذ أن العقل اللاشعورى هو المحرك الأول لحياتنا، ومصدر أغلب طاقتنا العقلية.

وقوة الطاقة اللاشعورية تؤثر على عقولنا الشاعرة عن طريقين، فإما أن تتحول إلى طاقة شعورية إذا كانت على وفاق مع رغباتنا ومع القواعد المرعية، وإما أن تظل كامنة تحاول الظهور فى أشكال مختلفة وصور متبانية ترمز إلى ما فى أعماق النفس من رغبات دفينية تبغى الانطلاق..

وإن دوافع اللاشعور وهى تتألف من شتى الرغبات والمطامع الفطرية الأولية، تتحول عادة إلى مطامع وميول شعورية فى حالة تعديلها

وتفيحها إلى درجة ترضى الرقابة الدقيقة التى تعمل من تلقاء ذاتها دون أن نعلم بها والتى تعرف فى مصطلحات علم النفس بـ (الأناتاليا). وبالرغم من هذه الرقابة الشديدة الصارمة التى يفرضها كل فرد فى داخلية نفسه، فإنه لا يدرى شيئاً عن وجود هذه الرقابة وأن أفكاره لا تأتى إلا عن طريق واحد يعرفه حق المعرفة وهو عقله الشاعر الواعى.

وقد تعددت واتسعت دراسات التحليل النفسى والبحث عن مكونات اللاشعور، وكان فى مقدمة الباحثين فى هذا الميدان - فرويد، وآدلر، وتلاميذهما.

ومهما كانت حياة الإنسان ميسرة بسيطة، فإن ذلك لا يعنى خلوها من الجانب اللاشعورى - فأطماع الإنسان المتجددة تكمن أيضاً فى اللاشعور - وعلى ذلك فالحياة اللاشعورية عامل مشترك بين عامة البشر، غير أن الاختلافات تكون فى نوع المؤثرات الخارجية ودرجة تأثيرها فى النفس ومدى بقائها كامنة فى اللاشعور.

وبقدر ما تكون درجة الضغط لإخفاء رغبة ما، وعدم السماح لها بالظهور بقدر ما يكون إلحاح اللاشعور فى إبرازها أو إخراجها فى إحدى الصور.

وليس من الضرورى أن يكون العقل الباطن للفرد مكتظاً دائماً بالرغبات الدفينة والنزعات الملحة، فالكثير من الناس البسطاء ينام وهو

خالى البال لا يورق ضميره شيء، غير أن ذلك لا يعنى خلو حياته من الرؤى والأحلام.

وتعتبر الأحلام بأنواعها المختلفة - أحلام النوم وأحلام اليقظة - المنفذ الطبيعى التلقائى الوحيد للرجبات الممنوعة وغير المحققة. كما أن هناك من الأحلام ما يسعى إلى تخليص النفس مما علق بها من آثار المخاوف والأوهام.

ويمكننا أن نراجع ما كشفه فرويد فى هذا الصدد، ويتلخص فى أن مغزى أحلام الليل يعادل مغزى أحلام اليقظة بالنهار، فسواء كانت أحلامنا بالليل أم بالنهار فما تفعله فى الحالتين هو التمنى، ولكن ماهية ذلك التمنى فى مصادره العميقة أمر مختلف تماما.

ولابد لنا من أن نتعرض لحالة النائم صاحب الأحلام. فذهن النائم أثناء النوم لا يكون فى سكون تام، فإذا كانت بعض المراكز العصبية الدماغية فى حالة شبيهة بحالة التخدير العميق، فلا يزال بعض الآخر يواصل نشاطه ولكن على نحو ضئيل متقطع، فقد تشير التذبذبات الخارجية أو التنبيهات العضوية الداخلية ألوانا من الصور الذهنية يراها النائم على صورة أحلام وأطياف. غير أن هذه التنبيهات ليست سوى علل عرضية لإثارة أحلام تنطوى على معان تفوق فى دلالتها المعانى التى يكشف عنها مجرد النظر إلى طبيعة تلك المنبهات. فالنشاط ذهنى - وإن كان قد انخفض مستواه - لا يزال يعمل، ويبدو هذا النشاط لا

فيما تتخذه الصور التي تثيرها التنبيهات الحسية من أشكال مركبة مختلفة، بل في بعض صور جديدة وتنظيمها وفقا لمنطق مخصوص هو منطق الأحلام المختلف عن المنطق الذي تسير بمقتضاه أفكارنا أثناء اليقظة.

وبمعنى آخر فإن الإنسان (حتى عندما يكون غارقا في نوم عميق) لا يكون في حالة غيبوبة حسية تامة، بل هو في حالة إحساس. كل ما في الأمر هو أن التنبيه الخارجي يحول الإحساس الكامن إلى إحساس فعلى واضح، والمنبه الحسى هو مجرد منشط للطاقة الداخلية وللإحساس الكامن ووظيفة الجهاز العصبى هو توجيه آثار هذا التصور وتركيزه (والإحساس بنوع ما من الأحاسيس ليس إلا التعبير الواضح لرد الفعل الذى قام به العصب عندما لحقه التنبيه).

وقد يخيّل إلينا أننا نحس بالأشياء وبالمنبهات، والواقع أننا نحس أنفسنا بأنفسنا عند تأثير المنبهات الخارجية. وقد يحدث أن يتنبه المركز الحسى تحت تأثير عوامل داخلية طارئة أو نتيجة للنشاط الفسيولوجى فى الدماغ، وكثيرا ما ينجم عن هذا التنبيه الداخلى تلك الصور التى نراها فى الأحلام أو بعض الانطباعات السابقة الكامنة أو هذه الخيالات التى نشكلها عندما تسيطر علينا أحلام اليقظة أو تلك الصور الوهمية المجمة التى ينفعل بها بعض المرضى بأمراض عقلية، ويعززون وجودها إلى أشياء خارجية واقعية ويرونها هم رؤية واضحة.

ويسوقنا ذلك إلى التعرض للحديث - فيما بعد - عن أثر كيمياء الجسم وإفرازات الغدد. (فى نهاية هذا الباب).

وتعتبر الظاهرة الغريبة التى كشفها فرويد فى تركيب الأحلام من أبدع الكشف حيث يقول: إن العقل يعامل الأفكار التى تحاول إزعاج النوم معاملة ملتوية، فهو أولاً يخترع علاقات تربط تلك الأفكار برغبة لا شعورية مكبوتة - ربما منذ عهد الطفولة - ويتخيل تلك الرغبة فى دور التحقيق، ثم يحولها بطريق التنكر إلى صور أخرى.

وتلك عملية غاية فى الغرابة، ولكنها من حسن الحظ تفيد علماء النفس؛ إذ تمهد لهم سبل الوصول إلى أعمق طبقات العقل وإلى أعز أمانى الشخصية الإنسانية. وإن معرفتنا بما يدور حوله أحلام أى إنسان تساعدنا مساعدة لانظير لها على التغلغل فى أعماق الأسس التى يقوم عليها خلقه، وفى هذا الصدد يقول فرويد:

- إن الأحلام هى أهم طريق يأخذ بيدنا إلى اللاشعور، فلا عجب أن يظل ذلك الجزء من العقل الذى له تلك الحرية الشخصية الكبيرة مستراً ومتكراً حتى فى النوم.

ويتضح من ذلك أن الأحلام قد تحقق رغبات الطفولة، وتركب من الرغبات التى توجه سلوكنا وتؤثر فيه أكثر من سواها على غير شعور منا منذ أوائل أيام طفولتنا إلى الوقت الحاضر.

والأحلام لا تنبئ بالمستقبل بشكل مطلق، كما كان الاعتقاد سائداً، ولو أنها قد تصدق فى كثير من الأحيان؛ إذ أن رغباتنا الشديدة تلح دائماً فى أن تتحقق، وقد تفلح أحياناً، فيصدق عليها المثل المعروف فى علم النفس: إن الحوادث القادمة ترسل ظلها أمامها.

ويقال فى مجال الأحلام إن الأحلام ليست إلا ضرباً من ضروب التمثيل العقلى: (قيل إن كلب الصيد يستعيد تجارب الطراد خلال نعاسه أمام نار المدفأة؛ ولذا نراه ينبج بين آونة وأخرى دون سبب ظاهر).

فإذا كان الأمر كذلك فلنا أن نجازف بالظن بأن الكلب يحلم بالأرنب البرى الذى فشل فى اصطياذه بالأمس، ولعله يستعيد فى تصوره هذه التجربة أو أنها تنبثق فى عقله مرة أخرى، وهو فى نباحه هذه المرة يحاول ضمان عدم إفلات الأرنب البرى مرة أخرى.

ومن الأحلام ما يؤدى وظيفتين إحداهما تذكيرية، والثانية إنذارية تحذيرية بما سيقع، فهى لا تذكرنا بما يتم حدوثه بالفعل، بل توجه نظرنا أيضاً إلى ما عساه يحدث.

فهذه سيدة كانت تقود سيارتها ذات مرة، وأرادت أن تخرج منديلاً من جيبتها، فنقلت يدها من يمين عجلة القيادة إلى يسارها، فانحرفت السيارة واندفعت إلى جانب الطريق، وكادت تنزلق إلى خندق،

ولكنها صوبت موقفها فى الوقت المناسب، فانتابها الخوف لحظة،
ولكنها ما لبثت أن هونت على نفسها الأمر، وكان غرضها من ذلك -
بدون - شك أن تتلمس عذراً لسوء تصرفها. وفى ليلتها تلك حلمت
بسيارتها تنحرف، ولكن السيارة تندفع فى الحلم عبر الطريق وتنزلق
على الجسر المنحدر ورائه، وتتحطم تماماً. لم يكن هذا هو ما حدث
بالفعل، ولكنه كان أمراً محتملاً.

وحدث ذات مرة أن غضب طفل فى سن التاسعة من أخيه،
فقدفه بسكين فأخطأه، ثم حلم بما فعل مرة ثانية، ولكن السكين فى
الحلم تصيب أخاه وتقضى عليه، ويمر الحالم فى حلمه بتجربة
رهيبة أخرى؛ إذ يوجه إليه الاتهام بأنه قاتل وتثبت عليه الجريمة
ويحبس.

ومن هنا تذكرنا الأحلام وتحذرننا بنتائج أعمالنا المحتملة

وهناك من الأحلام ما يعرف بالأحلام التنبئية: ونسوق على سبيل
المثال حلم فرعون الشهير، الذى رأى فى منامه سبع بقرات سمان
تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات، وهو ما
فسره النبى يوسف بقდوم سبع سنوات رخاء تتلوها سبع قاسية من
المجاعة، ومن ثم عهد إلى إقامة صوامع الغلال يودع فيها القمح
خلال سنوات الخير، فيتجنب بذلك أضرار المجاعة، وارتقى بذلك
إلى أسمى مكان فى البلاد، وكان فى ذلك تأكيد لحلم سابق
ليوسف، حيث رأى فيه إخوته يطأطئون له الرؤوس.

وهناك نظرية أخرى تسمى نظرية الذكريات الشخصية، وهذه النظرية تقول بأننا نحلم بما وقع لنا فى الماضى، سواء كان فى يومنا السابق أم منذ سنوات خلت، غير أن هذه الاستعادة لا تكون من الدقة بحيث تصور ما حدث تماما على وجه التحديد.

ومن المسلم به أن المخ يكون طوال النوم فى حالة نشاط متصل، فقد تبين أن المخ يشع خلال النوم موجات من طراز خاص وإيقاع معين، كما أثبتت ذلك آلة القياس الكهربائى للدماغ-electro encephalo-graph

وكثيرا ما تعاودنا بعض أحلام اليقظة فنشاهدها فى أحلامنا أثناء النوم، ومن الواضح إذن أن الأحلام تخدم الغاية التى تخدمها عمليات التمثيل العقلى التى تجرى فى حياة اليقظة نفسها وبنفس درجتها، ويبدو ذلك واضحا فى أحلام اليقظة عندما تقوم بتكوين معان وتصورات فى العقل فى غيبة التجارب الفعلية التى تدل عليها.

ولا يمكن الجزم بأن هناك أنماطا محددة للأحلام تتوحد فيها الرموز بين كافة البشر، فما ترمز به أحلام مجموعة من الناس لا يتحتم أن ينطبق على أحلام الآخرين أو ترمز إلى ما ترمز إليه أحلامهم.

ومن المسلم به أيضا أن الفرد الواحد قد يحلم أثناء نومه بأنواع مختلفة من الأحلام أو بمزيج منها خلال ليلته، فتارة تكون أحلامه رمزية، وتارة تكون استرجاعية، وتارة تكون تنبئية، وهكذا....

ويعلم الدكتور دوجلاس فراين الطيب النفسى فى تورنتو بكندا، بأنه إذا كان الإنسان يرى أحلامه ملونة فإن ذلك يعنى أنه لا يخاف من انفعالاته ولا من أنواع الصراع الذى يصادفه فى حياته. كما أن أصحاب الأحلام الملونة يتمتعون بصحة نفسية طيبة، ويعرفون أنفسهم، أكثر ممن يحلمون بصور (أبيض وأسود فقط) ويضيف إلى ذلك أن العباقرة والموهبين والفنانين يحلمون أحلاما ناطقة وملونة.

وهناك صلة وطيدة بين الأحلام وبين ما يصادف الإنسان من مشاكل النهار وما قد ورد على ذهن من خواطر وأفكار أثناء اليقظة، وكثيرا ما تتمزج الأحلام المتعلقة بالأمور الهامة بالأشياء التافهة العابرة، ومن هنا تبدو لنا بعض الأحلام مفككة متناقضة أو مشوهة غريبة.

غير أنه مما لا شك فيه أننا لا نحلم حلما واحداً أثناء النوم، بل إننا نرى عدة أحلام، وخاصة بعد الابتداء فى النوم وقبيل اليقظة، غير أننا ننسى كثيرا من هذه الأحلام بعد اليقظة مباشرة.

ولا يمكننا أن نفصل المؤثرات الجسمية والنفسية للنائم، كما أنه لا يمكننا أيضا أن نتجاهل الجو المحيط بالنائم.

فمما لا شك فيه أن الإنسان المكدود المتعب طوال النهار يكون مهيباً لنوم عميق أكثر من غيره ويسهل عليه الاستغراق فى النوم بسهولة، كما أن الفراش الوثير، والغطاء والجو المحيط كثيرا ما يكون له تأثير على النائم، وبالتالي على أحلامه.

ومن المسلم به أيضا أن العوامل الفسيولوجية لها آثار مباشرة على النائم وما يترأى له من أحلام، فالإنسان المتخيم كثيرا ما تؤدي به التخمّة إلى رؤى مضطربة ومفزعة، كما أن نوع الطعام الذى تناوله النائم قبل نومه قد يؤدي إلى آثار يترتب عليها تحديد نوع أحلامه.

ويعزو بعض الباحثين ما يترأى للنائم من بعض أحلامه إلى جو الغرفة التى يقضى فيها ليلته، وإلى الأوضاع التى يتخذها أثناء نومه لإراديا وما يتسبب عن هذه الأوضاع من ضغوط فسيولوجية قد تؤدي إلى أنواع أخرى من الرؤى والأحلام.

وها هو ذا أحد العلماء يرى أن أحلامنا تكمل حياتنا اليومية وترتبط بها، فجاء بإحدى الفتيات وأوصل أسلاكها بعينها ورأسها. ومد الأسلاك إلى أقلام صغيرة ومؤشرات خفيفة فى حجرة أخرى. وعندما تذبذبت هذه المؤشرات أيقظها من نومها، فقالت له إنها كانت تحلم، ومعنى ذلك أن عينيها تحركتا وأن عقلها تحرك.

وتكررت التجربة. وأثبت العالم عندئذ أن الحلم الإنسانى لا يتفرق لحظة فحسب، وإنما قد يمتد فيبلغ الساعة. وأن الإنسان يحلم أكثر من مرة كل ليلة، وبعض هذه الأحلام حلقات متصلة أو سلاسل مرتبطة.

وعالم آخر يسقط قطرات مياه بصورة منتظمة على رأس نائم، ويسأله بعد اليقظة، ويكتشف أن النائم قد مر أثناء أحلامه فى بحيرات وأنهار، ويفسر ذلك أن الحقيقة اختلطت فى رأسه بالخيال.

وعالم آخر يدلك قدم رجل نائم بقطعة من (الصفرة) ويعرف أن النائم رأى فى رحلة الليلة أنه يمر بصخور وغابات وأسلاك شائكة .

وتمتد الأبحاث وراء أحلام الليل؛ ليكتشف العلماء أن لهذه الأحلام سببا ومبرراً ودافعا، إنها - أى الأحلام - تبلغ رسالة ومعلومات واستنتاجات واقتراحات لحل مشاكل الحياة... حياة اليقظة أثناء النهار.

سئل رجال الأعمال، فقال بعضهم: إنهم رأوا فى المنام حلولاً لمشاكلهم، وقال آخرون: إنهم رأوا فى أحلامهم طرقاً جديدة لتنظيم أعمالهم بحيث وجدوا زوايا جديدة للتغلب على العقبات التى تواجههم، أو بعبارة أخرى أن نظرتهم للمشاكل تغيرت، وبالتالي تغير الحل كما قال كثير من الناس: إنهم رأوا فى الأحلام نصائح صادقة واستشارة مخلصه.

وأجمع بعض العلماء والباحثين على أن الأحلام تعتبر عملية تعادل أو معادلة لما يقوم به الإنسان أثناء النهار، فهى عملية موازنة عقلية ونفسية. غير أن هناك من الأحلام ما قد ينبئ عن بعض الأحداث المستقبلية، وهذا ما قد يحار العقل فى تفسيره.

يحكى أن سيدة رأت فى أحلامها مقتل عمها، وحدث أن قصت هذه الرؤيا على عمها نفسه وتفصيل ما رأت، وقامت بتحذيره وإسداء النصح إليه.... وبعد عامين تكررت نفس الرؤيا فى منامها، ثم عادت وتكررت بعد أربع سنوات....

ويحدث أن يموت العم فعلا وحقيقة، وبنفس الطريقة التي شاهدها ابنة الأخ فى أحلامها قبل ست سنوات.

وهذا لاعب كرة سابق يرى - فى منامه - أن المباراة القادمة ستتهى ب وفاة أحد لاعبي فريقه... ولم يستطع أن يميز هذا اللاعب وبعرض الأمر على إدارة الفريق الذى قرر استمرار إقامة المباراة فى موعدها... وتجرى الأحداث فى وضح النهار كما جرت أثناء الليل - ويصاب لاعب... ويموت بعد ٣٦ ساعة، ويتبين أنه الصديق الحميم لصاحب الحلم نفسه.

وهناك رجل رأى فى المنام وجها غريبا بغضا يحمل صندوقا تبين له أنه (كفن). ويسافر الرجل فى رحلة ويتزل فى أحد الفنادق، ويستأجر حجرة، ويأخذ مفتاحها، ويتجه إلى المصعد، وإذا به يفاجأ بأن عامل المصعد هو نفسه صاحب الوجه الذى رآه فى الحلم السابق، ويرفض الرجل أن يتقل المصعد، ويصمم على ارتقاء السلم... وبعد قليل يفاجأ الرجل بأن أسلاك المصعد قد تقطعت، وأن المصعد قد سقط من أعلى الأدوار، والعامل يموت وركاب المصعد جميعهم مصابون، ويكتشف الرجل الحقيقة أن العامل أسلم روحه فى نفس اليوم... وكان يوم عمله الأول هو يوم عمله الأخير أيضا.

وقال أحد متلقى الجبال: إنه رأى نفسه يصعد جبلا عاليا، وعندما وصل إلى القمة، استمر يصعد فى الفضاء ليسقط من حلق،

وقال له أحد علماء النفس: إن هذه رغبة مكبوتة فى الانتحار، ويلزمك الحذر... ولكن الحذر - كما يقولون - لا يدفع القدر... فقط المتعلق بعد رحلة ناجحة من فوق الجبل.

ولعل الإنسان الوحيد الذى ربح من الاحلام هو رجل أيرلندى رأى فى ليله أنه يراهن على حصان فائز فى سباق كبير، وأهالى أيرلندا مشهورون بالحرص والبخل الشديدين. وعلى هذا الأساس راهن الرجل بمبلغ صغير، فربح فى السباق... وجاء حصانه الأول... ويومها لعن تردده وحرصه وبخله. وتكرر الحلم، ولكن الحرص عاود صاحبه؛ ولذلك راهن أيضا بمبلغ قليل... وربح الحصان...

واعتاد صاحبنا أن يرى فى أحلامه اسم الحصان الفائز، واعتاد أن يروى أمام بعض الشهود هذا الحلم، بل وأن يسجله أيضا كتابة فى مظاريف مغلقة ومختومة حتى لا يظن به أحد الظنون.

وخلال ثلاث سنوات متتالية رأى الأيرلندى أثناء النوم أسماء عشرة جياد فائزة فى سباق الخيل، مما تسبب عنه أرباح كثيرة انهالت عليه.

وكثيرا ما تظهر بعض الأحلام على هيئة رموز... فمن الناس من يحلم أنه يطارد فأراً حتى يقتله... وما هذا الفأر الذى رآه فى حلمه إلا صورة مقنعة لعدو له... ومنهم من يرى ثعبانا يطارده

فيصحو من نومه خائفاً يترقب... وليس هذا الشعبان الذى ظهر له فى الحلم إلا رمزاً لعدو يكيد له.

ومن الأحلام ما تزخر بأنواع الطعام والشراب، ويفسر العلماء ذلك بأنه رمز للحرمان، ومن الناس من يرى فى أحلامه صوراً لما قد وقع بينه وبين بعض معارفه أو أصدقائه... وصوراً أخرى لم يستطع لها العلم تفسيراً حتى الآن... وإن كان بعض العلماء قد قالوا إن موجات كهربائية قد تلتقى فى وقت واحد فى مخ وعقل شخصين، ولكن أحداً لم يعرف بعد كيف تلتقى هذه الموجات الكهربائية فى هذا التوافق الغريب (إذا صح هذا الافتراض) !

وحتى الآن لا تزال الأبحاث مستمرة وراء رحلة الليل، تلك الرحلة التى تنطلق فيها الرغبات المكبوتة، والآمال الضائعة، والضمير المؤرق، والأوزار البعيدة.

إن العلماء يرون أن كل حلم له تفسير، وأن الحلم ليس إلا رسالة إلى صاحبه، وهناك وظيفة أخرى للأحلام غير إرضاء الرغبات وبعث الذكريات، وهى الإبقاء على النوم والذود عنه، مما عساه أن يقلقه من التنبهات الخارجية.

ويقول فرويد: إن وظيفة الحلم وهدفه هي اشباع الرغبة وتخفيف التوتر، ومن ثم يستطيع الإنسان أن يواصل نومه، ومن هنا فالأحلام ليست إلا وسائل لإزالة المثيرات الفعلية التى تقلق النائم، وذلك عن طريق إرضاء وهمى كاذب.

ويقول أرنست جونز فى هذا الصدد: «إن الحلم يعتبر حارس النوم».

وهناك حالات من الأحلام باللغة الغريبة... تلك الأحلام التى تطابق فى صورها ومدلولها، والتى تترأى لشخصين متباعدين تماما - فى ليلة واحدة، وهذه الحالات نادرة الحدوث، غير أنها مثيرة للاهتمام وملفتة للنظر.

وقد نشرت مجلة الأبحاث الروحية فى بريطانيا أبحاثا تتضمن بعض حالات الأحلام الغريبة التى تثير البحث والتساؤل، ومن بينها حالة غريبة قد يصعب على العقل تصديقها ألا وهى ترائى حلم واحد فى ليلة واحدة لشخصين متباعدين تفصلهما أميال عديدة... وعندما التقيا - وكانا أقرباء - أخذ أحدهما يقص ما رآه فى منامه، فاستوقفه الآخر وأخذ يكمل له جانب الحلم... مما جعل الآخر فى حالة ذهول كاملة... وأفاد بأنه رأى نفس الصور والأحداث فى منامه.

وفى مثل هذه الحالات يجب علينا ألا نغفل عنصر المصادفة، فكثيرا ما تلعب المصادفة فى حياتنا دوراً كبيراً.

ويجب علينا أن نعترف بأنه - رغم القدر الكبير من الموارد المتوافرة - فى هذا الصدد - لا الحقائق، ولا نظرية العلم السابق فى الأحلام، قد تسنى التأكد منها تماما بما يقنع ويرضى الخبراء جميعا. فمن الخطأ الشائع بالنسبة للحقائق أن ننظر إلى العدد الكبير من الاحتمالات

باعتبارها تنهض دليلاً وبرهاناً في ذاتها، على حين أنها قد تكون قائمة على مغالطات تفسدها. إن بضع حالات لا يرقى إليها شك، إذا كان بالوسع إثباتها، تساوى في قيمتها عدداً كبيراً من الحالات التي تفتقر إلى البرهان مهما بدت صادقة في ظاهرها

ويقول الدكتور الكيس كارليل، وهو عالم كبير من علماء الطب والحياة:

«إن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة، ومن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب...».

ومن الأحلام جانب آخر يعرف بأحلام اليقظة أو أحلام الاستسهال

ويقول فرويد في كتابه تفسير الأحلام:

«لا يمكنني أن أنكر وجود عدد كبير من الأحلام ترمى إلى إرضاء حاجات أخرى غير الحاجة الجنسية، حتى ولو نظرنا إلى الحاجة الجنسية بأوسع معانيها. وحسبى أن أذكر الأحلام التي يثيرها الجوع والعطش وسائر الأحلام المعروفة بأحلام الاستسهال».

ويعنى فرويد بأحلام الاستسهال - أحلام اليقظة - تلك الأحلام التى يزاولها غالبية الناس، فليس هناك من لا تراوده أحلام اليقظة ولو لمرة، ويمكننا الاهتداء إلى علامات أحلام اليقظة بسهولة إذا ما راقبنا أنفسنا مراقبة دقيقة، فهناك حالات يكون الإنسان فيها شارد الذهن، غرقاً فى بحر من التأملات والخواطر حتى يبدو وكأنه منطوٍ على نفسه تمر أمامه صور متلاحقة من الأخيلة التى تعرف فى علم النفس بأحلام اليقظة.

ونزوع الإنسان إلى هذا النوع من الأحلام أمر طبعى يكاد يشترك فيه الجميع، وقد لا يكون لأحلام اليقظة مضار إلا فى حالة الإسراف فيها أو إدمانها، وعندئذ يتمرئ الشخص هذا النوع من الأحلام يحقق به رغباته ونزعاته التى عجز عن تحقيقها فى الواقع، فتصبح حالة مرضية تؤثر على سلوك الفرد وتصرفاته.

ومن مظاهر هذه النزعة - الانسلاخ عن العالم الواقعى والفرار من الملل، والبحث عن الآمال والرغبات والتأثرات العاطفية والانفعالات التى لم ولن يسهل تحقيقها فى الحياة الواقعية.

وكثيراً ما تحقق أحلام اليقظة ما لم تحققه أحلام النوم، وتعتبر أحلام اليقظة أكثر وضوحاً وأيسر تركيباً للحالم نفسه.

والفرق الجوهرى بين أحلام اليقظة وأحلام النوم هو أن الشخص يشعر فى حالة أحلام اليقظة بسيطرته على هذا السيل من الصور

والأخيلة وتوجيهه الوجهة التي يرضاها ويتمناها. وعلى ذلك فإن إرادة الحالم فى هذه الحالة لا تكون منعومة، بل فى وسعها أن تسير دفة الحلم حسبما تهوى وتشتهى.

ولأحلام اليقظة درجات من الاسترجاع السلبى للذكرىات والصور، إلى إنشاء التصورات الجديدة والابتكارات الفنية. وكثيرا ما تكون مادة أحلام اليقظة حصيلة لما مر به الشخص فيما مضى من الانفعالات والتجارب العاطفية، غير أنها تكون فى أغلب الأحيان منطلقة نحو المستقبل انتقاما من الماضى وتشفيا منه، أو فراراً من الحاضر نحو عالم مثالى.

ولا ينجو الفنان العبرى أو العالم المجرب من استيلاء أحلام اليقظة على نفسه، بل إنها قد تكون فى كثير من الأحيان مصدر إلهامه وينبوع ابتكاراته المتجددة.

وقد يكون لأحلام اليقظة فوائد ومضار، غير أنه ليس هناك من ينكر أنه يشعر براحة نفسية بعد أن يفيق من أحلامه فى اليقظة.

* أثر كيمياء الجسم وإفرازات الغدد:

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى آثار كيمياء الجسم وإفرازات الغدد، نظرا لما يتبع ذلك من آثار مباشرة على تصرفات الأفراد وأمزجتهم وسلوكهم، بل وأحلامهم. فليس هناك شك فى أن الكثير من السلوك الفردى يتأثر تأثرا مباشرا بإفرازات الغدد، وبالتالي فإنه يمكن إرجاع الكثير من التصرفات والأفعال إلى كيمياء الجسم.

وإذا راود الشك إنسانا فى ذلك فإنه يمكنه مشاهدة ما يطرأ على شخص ما إذا ما أفرط فى تعاطى بعض المشروبات الكحولية.

ويحوى الجسم ثلاثة أنواع من الغدد: غدد ذوات قنوات، وغدد مغلقة أو صماء، وغدد مشتركة.

وتنصب الأولى إفرازاتها عن طريق قنوات داخل تجاويف فى الجسم أو على سطحه، ويشارك بعضها فى عمليات الهضم والتغذية مثل الغدد اللعابية والمعدية والمعوية - وبعضها الآخر يقوم بعمليات الإخراج والتخلص من الفضلات كالغدد العرقية والدهنية والدمعية.

أما الغدد المشتركة التى تفرز إفرازاً خارجياً وداخلياً فمنها البنكرياس والغدد الجنسية، وأما الغدد الصماء فليست لها قنوات خارجية، بل إنها تفرز إفرازاتها مباشرة فى الدم.

وتحقق الدورة الدموية التى تنتشر أوعيتها الدقيقة فى جميع أجزاء الجسم التكامل الكيميائى، حيث تحمل المواد الكيميائية إفرازات الغدد الصماء التى تنصب مباشرة فى الدم، فتذهب إلى العضلات والغدد، وتجعلها تستجيب فى أنماط متكاملة من السلوك.

وقد يبدو أن التكامل الكيميائى لا يتم بالسرعة نفسها التى يحدث بها التكامل العصبى، غير أنه ليس بالبطيء؛ إذ أن وصول إفراز الغدة الصماء إلى جميع أعضاء الجسم يتم فى حوالى (١٥ خمس عشرة ثانية).

ويجب أن نعلم أن التكامل العصبى الكيميائى فى تفاعل مستمر؛
لكى يتحقق التوازن العضوى العام، وبالتالي حدوث الاستقرار
الفسيولوجى الداخلى.

فكما أن أجهزة الغدد تتلقى التأثير من الجهاز العصبى فإنها بدورها
كذلك تؤثر فيه، وفى الحالات التى يحدث فيها التوتر الانفعالى
يحدث التنبيه الغدى الكيميائى للاستجابة نفسها التى يحدثها التنبيه
العصبى - فيتضاعف أثر التنبيه فى صورة دائرية.

ومن الثابت فسيولوجيا أن ما يعترى إفراز الغدة الدرقية من نقصان
أو زيادة يؤثر فى الحالة الانفعالية، كما يؤدى نقص إفراز الغدد
المجاورة للدرقية إلى سرعة التهيج العصبى والرعدة واختلاج
العضلات وتشنجها.

كما أنه فى حالة عجز البنكرياس عن الإفراز - تزداد نسبة السكر
فى الدم، ويصاب الشخص من الناحية النفسية بحالات من الخلط
الذهنى والذهول، وقد يصاب بالغيوبة، وفقدان الشعور.

كما يؤدى الأدرنالين - وهو نوع من الهرمون، تساعد على إفرازه
الغدة الأدرنالية أو فوق الكلية... دوراً هاماً فى الحالات الانفعالية،
ويساعد الجسم على تعبئة طاقاته لمواجهة الطوارئ بصورة إيجابية
فعالة. وأهم وظائفه انقباض الشرايين الصغيرة والشعرية فى الجلد،
وانقباض الأوعية الدموية فى الأحشاء وزيادة سرعة القلب وقوة دقاته
وقابليته للتنبيه والتوصيل وتوسيع حدقة العين.

غير أنه لا يمكن القول بأن الشخصية الفردية فى مجموعها تخضع تماماً لتأثيرات الغدد الصم، ولكن العلاقة تزداد ارتباطاً بين الشخصية والغدد الصم فى الحالات المرضية المتطرفة.

ولكن من الثابت أن بعض الأساليب السلوكية تؤثر بدورها فى وظائف الغدد الصم، مما يجعلنا نؤكد أن الشخصية الفردية وحدة نفسية وجسمية متكاملة.

الحدس والتبؤ

* علاقات بين الأحلام والحدس

الحدس هو نتاج البواعث التى تعتمل فى الذهن - والتى يبقها عادة نوع من الشرود الذهنى - وهو فى الحقيقة ليس إلا نوعاً من التأمل الباطنى.

ومن الثابت أن العقل الشعورى - وخاصة فى حالة اليقظة - يركز انتباهه فى الحاضر، ولكنه حين يكون فى حالة استرخاء، فإن العقل شبه الشعورى يكون قادراً على القيام بتبليغه مختلف الأشياء التى تسمح له أن يدركها بطريقته، وهذا هو جماع الحدس. فالشخص ذو الحدس هو الشخص الذى يفيد إلى أقصى حد من الإدراك والاستنتاج دون الشعورى. وهو السبب فى أن العالم يرى علاقات بين الأشياء، ويكشف عن أمور وهو فى حالة الاسترخاء مما قد لا يستطيعه حين يكون موجه اهتمامه ومركزاً انتباهه فيما يعمل.

وثمة نظرية أخرى أقرب إلى الفهم، ومفادها أن العقل دون الشعورى يتوافر له فى الرؤية والخيال مجال أوسع مما يتوافر للعقل الواعى . وقد تبين لنا من قبل أن العمليات دون الشعورية تستطيع أن تحل مشكلات يعجز عن حلها الشعور بسبب ما يتمتع به العقل دون الشعورى من نصيب أوفر فى التفطن، وفى مثل هذه الحالة يرى العقل دون الشعورى ما هو بسيل الوقوع قبل أن يتنى ذلك للعقل الشعورى؛ ومن ثم فإن بعض الناس قد يعلمون علما سابقا بأحداث لا يتهيا العلم بها للآخرين .

* علاقات بين الأحلام والحدس ومضات الإلهام.

ويحتمل أن يكون الحدس نابعا من نطاق ما دون الشعور - أو أنه نوع من الاستنتاج يتم فى مستوى دون الشعورى - وقد يبنى الحكم الحدسى على أساس من الملاحظة والإدراك الحسى الخاطف، وعليه فإنه يمكننا أن نفسر الحدس فى مثال بسيط على أنه القدرة على جمع رقمين بصورة سريعة دون الشعورية يقوم بها العقل دون الشعورى، والذى له تلك القوة الغامضة التى تمكنه من فحص ما يعرض عليه من المشكلات وربط عناصرها بعضها ببعض عن طريق التماثل أكثر منه بتحكيم الاستدلال العقلى، وبالإستهواء أكثر منه بالبرهان .

ولكن ذلك لا يعنى أن كافة الحلول التى تقدمها الأحلام أو الحدس تكون دائما صحيحة .

ويقول بفردج Bevredge:

- إننا فى سعيانا وراء الأفكار المبتكرة الأصلية يكون من المجدى لنا أحيانا أن ننبذ التفكير الموجه المضبوط، وأن نطلق سراح خيالنا كى يمرح منطلقا فى أحلام اليقظة.

ويذكر الأستاذ كانون Kanon طبيب الأمراض العصية الشهير: أنه كان معتاداً منذ شبابه على أن يتهلم من فطنته العون، فيأتيه فجأة وعلى غير انتظار، وأنه كثيرا ما كان يذهب للنوم وعقله مثقل بالتفكير فى مشكل ما، ثم يصحو فى صباحه وقد أصبح الحل فى متناول يده، ويقول: «لقد أصبح من المؤلف لدى أن أركن إلى العمليات اللاشعورية واثقا من أنها ستدئ إلى خدمة ما» فكان من ثم يستخدم النوم لحل مشكلاته.

والأحلام إفصاح فى الشعور عن العمليات التى تجرى فى العقل دون الشعورى، ويؤدى هذا العقل وظائف أخرى، تتجاوز وظائف العقل الشعورى المفكر، وكثيرا ما تكون أعلى مرتبة منها، ويمكن أن نطلق على هذه الوظيفة اسم (الحدس أو البداهة) وهى وظيفة تعمل طول الوقت فى شئون حياتنا، وإن لم ندرك وجودها فمن الحكمة لنا أن ننصت لصوتها.

ويحدث أن ينام الإنسان وعقله مشغول بمشكلة ما، فإذا به يصحو فى الصباح وقد هداه الحلم إلى حل لهذه المشكلة، فغالبا ما يعمل

العقل اثناء النوم؛ ذلك أنه لا يكون غافلاً فى تلك الأثناء عن إيجاد حل لهذه المشكلة.

وقد لا نتجاوز الحقيقة عندما نقول: إن الكثير من العضلات العلمية قد تسنى حلها على هذا النحو، وإن بعض الكشوف العلمية العظيمة قد دانت لأصحابها فى أحلامهم، وكثيراً ما يلجأ العلماء إلى هذه الطريقة عندما تواجههم صعوبة معينة، ويقول الأستاذ أوتو ليفى. أستاذ علم العقائر: إنه استيقظ ذات ليلة وفى رأسه فكرة باهرة عن التوسط الكيميائى وأثره فى السيالات العصبية - فعمد على التو إلى تدوين الفكرة - وفى الصباح كان ذعره بالغاً عندما وجد نفسه عاجزاً عن فك رموزها. ومن حسن الحظ أنه فى الليلة التالية صحا من نومه على ومضة البصيرة نفسها، ولكنه احتاط هذه المرة فلم يجازف بشيء، وسجل كافة التفصيلات.

ويقص علينا أحد الشعراء ذوى الشهرة العالمية أن الكثير من إلهاماته التى أوحى إليه قصائده كانت تتوارد على خاطره أثناء الليل، وأنه كان ينهض عندئذ من نومه ليسجلها.

ويقول أينشتين العالم الرياضى الشهير: «ليس هناك من سبيل منطقي يمكن أن يؤدي إلى تلك القوانين الأولية، وإنما الوسيلة الوحيدة هى الحدس» ويقول: «إن ما ورد فى نظريته من تعميمات أساسية تيسر الوصول إليها وهو راقد فى فراش المرض.»

وهذه الأمثلة التوضيحية كلها تثبت أن العقل أو المخ لديه القدرة

على حل المشكلات حلاً آلياً، وخاصة في لحظات الاسترخاء، فضلاً عن قدرته على عمليات التفكير المنطقي.

وهذا ما يحدث على وجه الدقة في الأحلام. فنحن ننحى جانباً مشكلاتنا اليومية، سواء كانت مشكلات عملية أم أخلاقية أم غير ذلك، ولكن الحلم لا يلبث أن يتلقفها ويحلها بطريقة دون الشعورية، وبصورة فعالة تفوق ما يمكن أن نتوصل إليه عن طريق التفكير الشعورى.

أما كيف يحدث هذا فلا علم لنا به، ولا نستطيع إلا أن نرد الأمر إلى العمليات دون الشعورية التى لا ندرى عنها إلا القليل. ولكن الأبحاث الحديثة فى استجابات المخ الكهربائية تؤكد هذه الحقيقة وتلقى عليها الضوء.

وإذا كان للمخ القدرة على حل مشكلات معقدة فى العلوم والرياضيات، فليس بعيداً أنه يستطيع كذلك - وبنفس الأسلوب - أن يعالج المشكلات العادية، ومصاعب الحياة بصورة آلية، وهو الأمر الذى يفعله فى الواقع. إنها عملية تحدث دائماً، وليس فقط فى لحظات الإلهام، كما أنها تسير فى طريقها دون اعتبار لأى جهد مكانه للعقل اللاشعورى، ويأخذ هذا على عاتقه اقتراح وسائل من صنف آخر تؤدى إلى الحل، كما هو الحال فى استكشافات العلماء.

وهى عملية تجرى دون أن نشعر بها فى العادة؛ ولذلك نجد أنفسنا نتحدث عن النتائج التى نحققها من هذا السبيل كما لو كانت قد هبطت علينا من عالم المجهول إشراقة من نور.

إننا نشعر بالمشكلة التى تملك مشاعرنا، كما نشعر بالحلم، ولكننا لا نشعر قط بشيء من العمليات التى تقع بين الاثنين.

ويقول الدكتور الكيس كارليل - الحائز على جائزة نوبل فى الطب والجراحة:

«من المحقق أن المكتشفات العلمية الكبرى ليست من عمل الذكاء وحده فإن للعلماء الأفضاذ إلى جانب قوة الملاحظة والفهم صفة أخرى هى الحدس... إنهم بالحدس يدركون ما يخفى على الآخرين ويتبينون علاقات بين أحداث منعزلة فى الظاهر، ويخمنون وجود الكثر المجهول. وعظماء الرجال جميعاً وهبوا الحدس».

إن العالم الكبير يتوجه فوراً الوجهة التى تقوده إلى حيث يوجد اكتشاف يجب أن يتم. هذه الظاهرة هى التى كانت تسمى فيما مضى بالوحي.

والحدس فى حياتنا اليومية وسيلة قوية من وسائل المعرفة، ولكنها وسيلة خطيرة، ومن الصعب أحياناً تمييزها من الوهم.

وعظماء الرجال والبسطاء وأتقياء القلوب هو وحدهم الذين يمكن أن يرتفع بهم الحدس إلى القمم العالية فى الحياة العقلية والروحية... إنها ملكة فريدة، وإن إدراك الحقيقة دون عون من التفكير والاستدلال يبدو لنا أمراً لا تفسير له.

ويبدو الحدس فى إحدى صورهِ كما لو كان استدلالاً غاية فى السرعة يتم فى لحظة خاطفة، ومن المحتمل أن تكون المعرفة التى يكونها الأطباء العظام عن حالة مرضائهم ومستقبلهم من هذا القبيل.

ويحدث ذلك أيضا عندما نحكم فى لحظة واحدة على قيمة رجل،
ونخمن مزاياه ونقائصه.

ولكن الحدس يحدث فى صورة أخرى دون ملاحظة أو استدلال،
فتحنّ نبلغ أحيانا هدفنا المنشود دون أن ندرى شيئا عن مكانه، ودون
أن نعرف وسيلة للوصول إليه.

ويقول وليم مالتون مارستن من علماء النفس - وتحت عنوان -
أطع هذا الحافز. ما نصه:

«لبثت سنوات أبحث عن الينابيع الباطنة الخفية التى تكفل التوفيق
فى الحياة وأحق بالتقديم منها العمل الذى يقوم به المرء بغتة وفى
حماسة مستجيبا لما يهتف به من خطرات القلب.»

وأكثرنا يحقق فعلا من الحوافز الباطنة فى يوم واحد ما يكفى
لتغيير مجرى حياتنا. . . وهذه الومضات الباطنة من الحوافز تضىء
العقل هنيئة ثم تخبو ونقنع منها بوميض ضوئها الغارب، ونكر
راجعين إلى مألوفنا وفى نفوسنا إحساس غامض بأننا قد نصنع يوما
ما شيئا فى هذا الأمر، أو أن نيأتنا على الأقل كانت طيبة، غير أننا
بهذا نجنى على ذاتنا الباطنة.

إن فى كل منا دافعا لا يفتر إلى إبلاغ النفس غاية الميسور من
كمالها، وكلنا يعرف أى شخص ينبغى أن يكون؛ لأن هذه الدوافع
تدلنا وتهدينا وإن كان عدم الصدور عنها يضعفها، على أن العمل
بوحى الداخل ليس معناه إحلال ذلك محل العقل، وإنما معناه أن

نتخذ هذا الوحي وسيلة لمعرفة الطريق الذى ينبغى أن يسلكه العقل،
وبديهى أن الطريق لا يخلو من حفر، وقد يكون من الخطر أن نهض
بغثة ونلقى بأنفسنا على ما يدفعنا إليه أول الخاطر، ولكننا نستطيع على
الأقل أن نبدأ بالإكثار من الاستجابة إلى الدوافع الباطنة التى نعرف
أن فى وسعنا أن نطمئن إليها ونعتمد عليها.

قلب صفحات حياتك، وراجع تجاربك فيها ترى أن كثيرا من
أسعد ما مر بك فيها وأعظم ما وفقت إليه كان فترة العمل بوحى
داخلى، وهذا يعلمك أنه لا أمل لك فى دافع غير منظور إلى النجاح
إلا من أعماق نفسك الباطنة، فلتطع إذن خير ما يهتف بك من
الحوافز، وانظر كيف تمضى.

ويقول عالم الطبيعة الألمانى المشهور فون هلمز: «إن الأفكار
المباركة كانت تنهال على بعثة، ولم أبذل لها جهداً كأنها إلهام، وإنها
لم تخطر لى قط وعقلي مجهد بها أو وأنا أعمل مكبا على مكتبى»

- وهناك من العلماء من يرجع نجاح الباحثين إلى وجود قوى خفية
فى داخل الإنسان نفسه تدفعه إلى النجاح والتقدم وترسم له الطريق
الذى يجب أن يسلكه العقل، فهى بذلك أقوى من النفس وأفضل
من العقل.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة: فهذا فردريك جرانث بانتنتج
أمضى ليلة من ليالى أكتوبر فى عام ١٩٢٠ يعد محاضرة عن مرض

السكر، وكان جراحا كنديا لا يكاد يكسب من عمله شيئاً، فهو يحاضر ليكسب عيشه، فأصابه البحث في إعداد المحاضرة بالإرهاق، فقام إلى فراشه ونام، وفي الساعة الثانية بعد انتصاف الليل كان يتقلب في فراشه فاستمع من داخله إلى ثلاث عبارات، نهض فوراً من فراشه وسجلها في مذكراته، وكانت العبارات:

(اربط قناة الغدة الحلوة من غدد الكلاب - انتظر من ستة أسابيع إلى ثمانية - استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة تعالج السكر) وكانت هذه العبارات التي أفضت إلى كشف الأنسولين....

وقد اعترف علم النفس بحل المشكلات التي يعجز عن حلها الإنسان عن غير طريق فكره... إذ توصى الدراسات النفسية أن يطرح الإنسان التفكير في المشكلة إذا لم تحل في الوقت المناسب أو لم يستطع تفكيره حلها... فإنه بطرح التفكير فيها يجد الحل وقد أخذ ينبعث من داخله.... ويعجب الإنسان وهو يرى الحل وقد ألقى إليه، وأيا كان هذا بسيطاً وسهلاً أو صعباً ومعقداً فإنه يطفر فجأة إلى ذهن صاحبه.

ويرجع بعض العلماء ذلك إلى عمل العقل الباطن، فيما يرجعه الآخرون إلى عمل الملائكة التي تنزل على المؤمنين بالله، فتشجعهم وتعينهم وتأخذ بيدهم....

الحقيقة والخيال

قد يكون من اليسير على الإنسان السوى (العادى) أن يعرف شيئاً من الحقيقة دونما تعقيد، حتى إذا ما استبدت به نزعة البحث والتدقيق اهتزت معايير الحقيقة فى نفسه وعينه .

وكثيرا ما يثق الانسان فى أشياء وأمور معينة فلا تلبث أن تصبح حقائق ثابتة بينه وبين نفسه . ولكن الامر يختلف فى أذهان العلماء والمفكرين . . . فالحقائق عندهم لا قرار لها ولا استقرار، وإذا ما استقرت حقيقة ما فى أذهانهم فإنه استقرار إلى حين .

وكثيرا ما نسمع من يقول: إن من الحقيقة ما هو أغرب من الخيال، وفى عصرنا الحديث غالبا ما يجد الإنسان نفسه وسط حقائق عجيبة تدرجت بها الظروف والأبحاث تدرجا طيعيا، فلا يلبث حين يتدبر ما انتهت إليه هذه الحقائق أن يتساءل فى عجب: كيف وصل الحال بهذه الحقائق حتى صارت على هذه الصور؟

وتختلف الحقائق فى أعين الناس وفى نفوسهم . وقد يختلفون فى تفسير شىء واحد ؛ لأنه يقع فى نفس كل منهم موقعاً يغير موقعه فى نفوس الآخرين ، وهكذا يقول العلماء إن للحقيقة ألف وجه ووجه . وقد لا يكون من المجازفة أن نقول إن ما نتخيله اليوم قد يصبح من اليسير أن يتحول إلى حقائق غداً .

ويغوص الإنسان فى أعماق البحار ، وينفذ إلى أقطار السماء وإلى مدارات النجوم والأقمار بحثاً عن شىء من الحقيقة ، غير أنه فى كلتا الحالتين لا يحصل إلا على التزر اليسير الذى لا يشبع طموحه وتطلعه .

- والحقيقة أنواع : منها ما هو مرئى ، ومنها ما هو ملموس ، ومنها ما هو مسموع ، ومنها ما هو مستتر غير منظور . ومن الباحثين من يقول إن الحقيقة واقع ، وإن الخيال فكر وسبح ، غير أنه يمكننا أن نفرق بين كيان المرئيات والملموسات وبين تلك الحقائق التى لا تُرى بالعين ، كالأصوات والروائح والخيالات والصفات .

وعلى الرغم من أن الصفات حقائق - كالصدق والكذب والجرأة والمكر والشجاعة - فإنه لا بد لها من مظهر تتجسد فيه حتى تصبح ماثلة للعيان .

ومن قدرات الإنسان المشهود له بها أنه ينشئ من الحقائق حقائق أخرى . . . فاعتماداً على المسائل الجبرية والحساب يُصنع العقل

الإلكترونى، ومن الذرة يُصنع الوقود... ومن الأحجار تقام
العمائر، ومن الأكاسيد تستبط المعادن... غير أن هذا الخلق لا
يمكن أن يخلو من حقيقة أخرى هى خيال الإنسان، بل ولا بد أن
يسبقه الخيال. ومن هنا يحق لنا أن نقول إن الخيال صنو الحقيقة
وقرين لها، كما يحق لنا أن نقول أيضا: إنه لا حقيقة بلا خيال ولا
خيال بلا حقيقة.

وإذا تأملنا فى منتجات الإنسان على مر العصور استطعنا أن نجل
تلك الحقيقة الرائدة التى تؤكد أن خيال الإنسان قد سبق يديه لدى
معالجته لمختلف المواد والعناصر.

ويعتبر التدرج من أهم الأمور التى تحيط بالحقيقة فى كل زمان
ومكان... فالشجرة التى نراها مورقة اليوم كانت بذرة فى يوم ما،
وهذا البناء الشامخ كان أكواماً من تراب ورمال، وهذه الآلة الدقيقة
استخرجت عناصرها من باطن الأرض... وهذا الضوء الباهر ما
هو إلا نتاج قوى متصارعة...

وكذلك تتدرج الحقائق من الصلابة إلى الأثير، ومن الرؤية إلى
الخفاء... وما من حقيقة إلا وقد تطورت فى مراحل أو تكونت
من طبقات أو التفت فى ألياف.

وإذا ما طبقنا قواعد النسبية بين الحقائق وجدنا أن كل حقيقة
تفرض نفسها بين الحقائق الأخرى، ووجدنا أنفسنا نميز بين كل منها
على حدة، وبينها جميعا مجتمعة.

أما إذا أخذنا بمبدأ الفلسفة اللانهائية تلك الفلسفة التى تدفع
الإنسان إلى بحر التيه ليشكك فى حقيقة كل ما حواله حتى
نفسه. فيقول من أنا؟ ومن أين أتيت؟ وكيف جئت؟ وإلى أين
نسير؟ - فهنا تصبح الحقيقة طريقاً بلا نهاية.

وقد يحدث أن نمسك بطرف من أطراف الحقيقة، غير أن الطرف
الآخر دائماً يمتد نحو الخفاء وهكذا سيظل الطراد دائماً ومستمراً بين
الإنسان والحقيقة.
